الحبيب السائح: تاريخ الشعوب الحالي تكتبه الرواية

الروائيون الجزائريون واجهوا رواية الأقدام السوداء

يطرح الروائي الجزائري الحبيب السائح في هذا اللقاء مع مجلة "الجديد" العديد من الواضيع منها خاصة هاجس الكتابة عن اليهود الذي أفرد لـ عمـ لا روائيا صدر العام الماضـي "أنا وحاييم"، حـاول أن يلتقط فيه التفاصيل والوقائع والعلاقات القائمة بن يهود الجزائر والمسلمين، وكيف كانت العلاقة بينهم خاصـة أثناء الحرب التحريرية، وينظر أيضا في هذا اللقاء في مكانة المن الروائي الجزائري ضمن متون عربية ودور الجوائز وإسهامها في التعريف بالكاتب وغيرها من المواضيع.



أبو بكر زمال كاتب جزائري

الجديد: كيف تعيد قراءة مسارك الروائي؟ كسف كانت البدايات، كيف تجلت؟ ما الذي أوقفك على درب الكتابة المضنى؟

■ الحبيب السائح: أعترف أنه سكنني، ولا أدرى منذ متى ولا كيف هاجس أن أصبح يوما صحافيا أو كاتبا أو ممثلاً، حيث مثلت في مسرح الهواة عندما كنت في العشسرينات من عمري. انضممت إلىٰ جريدة الجمهورية لإعداد ملحق "النادي الأدبي" (مع المرحوم بلقاسم بن عبدالله). ثم كتبت أولئ قصصى القصيرة وفزت بحائزة القصة والشعر التي كانت تنظمها وزارة التعليم العالي في السبعينات. وقد كان الحدث حافزا كبيراً لى على مواصلة الكتابة القصصية، والتي وجدت بعد فترة، أن فضاءها لم يعد يستمح لي بأن أكتب ما هو أوسع مما يسمح به؛ وهو فضاء، في الحقيقة، صارم جدا منه تدربت على صياعة الجملة السردية. وقد لا أكون الوحيد، من جيلي، الذي خرج من فضاء القصية القصيرة إلى فضاء الرواية. بل أؤكد أننا (جيلي) كتبنا القصة القصيرة قبل انتقالنا إلى كتابة الرواية. وكان هذا، في تقديري، مرتكزا صلبا كنا سنبني

ثم، إن ما قد يكون أوقفني على درب الكتاب، كما تقول، المضنى فعلا، هـو قراءاتي مند المراهقة التـي كانت، سلا إنكار لذَّلك، تدْخل في حوار مع ما كنت أحفظه من القرآن، ولاحقا مع كنت سأقرأه من النثر العربي ومن الشعر ومن التراث الإسلامي في مجمله، العقلاني منه خاصة. مما شُكُل لديّ ذائقة لغويةً ذات خليط باهر سيطعم بما كنت ساطالعه باللغة الفرنسية. فأنت ترى أن هناك عوامل كثيرة قد تجتمع لك في مسارك لتوجهك نحو غايسة كنت ترغب في الوصول إليها. وها أنا اليوم، بقدر ما تكلفني إياه كتابة الرواية من شيقاء عصبي وتعب جسـدي، أشـعر بغبطة لا تنقطع لأنى أعيش أحد أحلامي الثلاثة.

عليه نصوصنا الروائية.

التجربة المخاض

• الجديد: هناك سمة تكاد تكون ملازمة لتجربتك وصقلها وتقديمها للقارئ في نص باذخ يحتفي باللغة.. كيف تشرح هذا النزوع وهذا الاقتراب؟

■ الحبيب السائح: لعل في الإجابة أعلاه بعض العناصر التي تشرح الأمر. أحب، فحسب، أن أضيف أني مسكون بلغة القرآن، في بلاغتها وفي جملتها النحوية، ولكن أيضًا، وهذا هـو الباهر لي، نظّمها

> ً فی روایاتی «کولونیل الزُّىرىر » و«تماسخت» و«مذنبون لون دمهم في کفی»، عملت علی نقل الوقائع بعد أخذ مسافة

وإذا أضفت إلى ذلك الشعر العربي

في استعاراته ثم ألف ليلة وليلة في توليد الحكاية وسيردها، والرواية الكلاسيكية الروسية والأميركية والفرنسية في بنائها وزخمها وسعة فضائها والرواية العربية مع روادها الذين تعلمنا منهم التواضع والاختلاف وأخيرا رواية أميركا اللاتينية التي كانت "الصعقة" التي لم تترك أي كاتب عربي لم تهز كيانه، سيحصل لديك، بالتأكيد، ما يضعك أمام خيار واحد ووحيد: أن تكون أنت في لغتك وفى تراكيبك كما في انتقاء موضوعاتك وهي مجتمعة تشكل بصمتك. فمن هنا ما يضتى. ومن هنا ما يشقي. ولكن بالرغم من ذلك ما يمنح قلبك غبطة متجددة. ويوفر لك حرمة لدى قرائك.

يمكن أن نقول إن هناك كتابة للصحراء؟ ■ الحبيب السائح: أحب في البدء أن أحدثك عن علاقتي بالصحراء. هنالك، في

• الجديد: أنت روائي مهجوس بالصحراء كيف

كتبتها، وما علمتك الصحراء؟ كيف يمكن أن

تفهم من يقول إن الرواية هي بنت المدينة، هل

الجنوب الغربي الجزائري، في حاضرةً أَدْرَارْ، شَاءت لي العناية أنْ حَرِرْت سمعي وبصـري وبقيــة حواســى لأدخــل حنةً الأصوات والكلمات والألوان والأنوار فأسمع صمت الأمكنة الناطق بظل الإنسيان الذي مرّ، الذي يميرّ، وأقف على بقايا أثره في الطوب والماء وفي الخضرة والورق كما في الخيط النوراني الرابط بن الأرض والسماء؛ فاكتشفت أن فضاء صحراء أدرار لا يشبهه فضاء صحراء

تلك كانت علاقتي الجسدية والروحية بصحـراء أدرارْ، المكّرمــة القصوى التي حبتني إياها العناية. فانضرل لي كونٌ شاسع من العلامات التاريخية والأنتروبولوجية والإتنية والمعمارية والثقافية والفلكلورية والروحية متعددة الأبعاد المتوجهة بضياء المحبة. محبة لا

تمنحك إياها غير صحراء أدرارٌ. وكنت، لذلك، وقفت يوما، في صمت واحة 🅊 تيميمون، نصو قصر

أولاد سعيد، ويوما آخر في سيكون حُميادة أولف نحو قصر أقبلي، ويوما ثالثا على عرق عين بودة المباركة. فسالْتُني كل مرة: باي لغة أواجه هـدا الفضاء الفاتن؟ كيف أعيد تخييل أدرارٌ الأخرى المتحركة في الذاكرة والوجدان والبصر عبر متاهات القصور والقصبات ودهاليزها

الحبيب السائح

تفاسلمة

الحبيب السائح

ومجاري فكاراتها تحت الأرض وسواقيها إلى بساتين النخيل الشاهد من خلف الطوب، وهذا الوهج المتخلل لكل شـــىء، وهذا السر الدي يتابعك حيثما حللت إن أنت

استدرت لتكتشفه الفنته

تحول سرابا! ذلك كله، كان يستدعى لغة فائقة الدلالة: لغة المخطُّوطة؛ طوطـة التـى، فـى أدرارْ، لا تـزال لها مهابة من القدسية؛ لغة القرآن فـى نظمه،

> والسير، والسرود الشفهية المحملة بالأسطوري المشحونة بالخرافي؛ لغة رجل الرمل بلكنتها الآسرة، لغة الكتاب المقدس بما ترنمه يوما نشيد الإنشاد. وفوق هذه اللغات كلِّها لغة الرواية التي تنتهى إليها كل لغة.

كأنت التجربة القصوى، بالنسبة إليّ، في صحراء أدْرارْ، أن أجيب عمّا يلى: إن كان فضاء الصحراء بهذه الشسباعة والسر والصمت، والخوف أيضا، والسحر، والحب، فكيف ينبغى لعالم رواية، فيها، أن ينشأ، أن يكتب على درجة ذاك الفضاء نفسها؟

ثمة، كان سيكون البدء لسرد يتأسس على إيقاع فضاء أدرارْ كلها؛ لا نقلا عنه ولا تبديلا له، بل إضافة له ليصبح المكتوب هو الفوقي، الجميل، الباقي، الدال على الحياة، البديل عن الزائل.

تلك كانت الضريبة القاسية التي تطلبتها ضرورات ميلاد نص حديد متماه مع المحكيّ المحلي بحمولاته كلها مفارق لله في قلدرة استيعابه العلامات وفي أسلوب نقلها إلىٰ لغة الرواية، متقاطع، في ذلك، مع المخطوطة مضيف إليها رونتق البلاغة الجديدة وصرامة النحو

لذلك، تحتّم الاستناد إلى خيارات بنائية وقاموسية وبلاغية تعكس طبيعة التيمة: المحبة في أبعادها الإنسانية، ما فوق التقسيم الديني، والصوفية في

إشسراق أنوارها على كائنات الصحراء كلها: البشس والطير والشجر والحشرات والماء والرمل والشمس والقمر. فكل كتابة لي لاحقة، منذ 1994، كانت

ستكون بنفحة منّ تلك اللغة التي علّمتني صحراء أدرار إياها. وكان كل نص جديد سيروح هو السرير المائي المتجدد، الذي أحس روحي يتهدّهد عليه، كما في البدء، كما في روايتي

"تلك المحبة". هوسي بالصحراء ليس إلا انشعالا بهذا الفضاء البديع الملغز والساحر. دخلت أدرار أحمل خوفى ورعبي وهواجس موتي. فبدّلتني أدرار ذلك كلّه أمنا وسكينة وأملا،

لذلك، وكاعتراف مني بذاك الجميل الذى أهدتنيه إياه العناية وبالحضن الإنساني الذي قابلني به أهل أدرار، منذ أن نزلت بينهم، كتبت لها "تلك

أعتبر "تلك المحبة" أول نص سردي عن أدرار بحواضرها الثلاث: توات، محورارة وتيكلت، وهو لا يصف صحراءها في قفرها وجدبها ولكن في حياة إنسانها وفي ارتباطه بقدسية الماء وبالنبات

علاقته مع الله ومع الكون الذي يبدو لك متحركا في بعد أخر، غير الذي تراه في المدن. فإن أول ما شدني، من ذلك، هو شعوري بأن الله أقرب إليك من كل شيء تراه عينك، من هنا علمتنى صحراء أدرار أشداء، لا تعلمك اناها جغرافیا أخرى، فهی الصبر والتأمل والمحبة

صحيح أن الرواية، في جوهرها، إنتاج المدينة. وهندســتها هي هندســة المدينــة فــي معمارها وفي حركيّتها وفي علاقاتها البشسرية. وأدرار المدينة، الآن، هي جزء من تخطيط المدينة

القديمة الباقية إلى اليوم، مثلها مثل

أعتقد أن هناك كتابة عن الصحراء، وهيى قد تكون كتابة ناقلية عنها للغير بطاقة بريدية. وهي كتابة عابرة. وأن هناك كتابة في الصحراء ومن الصحراء. وهذه كتابة بدَّأت تؤسس شيئا فشيئا في أدرار، التى لم تعرف السرد القصصي أو الروائي إلا منذ فترة قصيرة جدا.

مسرح الكتابة العنيفة

• الجديد: في تجربتك الأخيرة تعايش اليهودي مع المسلم؟ ما هي حدود هـذا التعايش.. كيف لمسته؟ ما الذي يمكن أن يجمع حسبك بين هذين المتنافرين؟ هـل برأيك يمكن للرواية أن تضع مفهوما جديدا أو تبني علاقة جديدة تاريخية بين اليهودي والمسلم في ظل ما يعرف الآن من صراع وجوَّ مشحون وفَّي الكثير من الأحيان

سعيت إلى إظهار العلاقة التي يمكن أن تربط إنسانا إلى إنسان آخر من وطن واحد علي ديانتين مختلفتين. وكم كان ذلك، بالنسبة إليّ، مثيرا! فبحسب ردود أفعال القراء بدا أن "أنا وحاييم" بلّغت

الرسالة التي عملتُ وأردت لها أن تصل.

كانت الرواية المكتوبة بالفرنسية في الجزائر هي السائدة واليوم يتأكد أن المشهد تغير لصالح الرواية المكتوبة بالعربية

لم تكن هناك حدود تعايش فاصلة، إتنيا ودينيا بين المسلمين وبين اليهود في الجزائر، قبل الاحتلال وقبل قانون "كريميو" (1870). فأنت إذ تعود إلى تلك الفترة وحتىٰ عشية حرب التحرير لا تجد هناك فرقا واضحا بين الطائفتين في الجيرة وفي اللغة واللباس والغناء؛ خاصة عند اليهود الجزائريين أصلا. إنما الذي كان سيحدث الشرخ هو قانون "كريميو" وهو أيضا الحركة الصهيونية التي نشطت في الجزائر غداة نهاية الحرب العالمية الثانية وخلال حرب التحريس لتهجير اليهود الجزائريين إلى فلسطين التي كانت 1948. وبرغــم ذلـ تناولته رواًية "أنا وحاييه" بقي في الجزائر يهود من أصول جزائرية أو يهود من الأقدام السـوداء شـاركوا في حــرب التحريــر. فمنهــم من استشــهد ومنهم من نفى أو سبجن بعد الاستقلال لمعارضته انقلاب 1965، مثلهم مثل بقية الحزّائرين. هذا ما تقوله، أيضا، رواية

ما يمكن أن يجمع بين يهودي وبين مسلم هو الإنسانية، لأننا جميعاً أبناء أدم، كما تقوله الرواية نفسها. الإنسانية التي تقاوم الميز على أسساس الدين أو العرق وتناهض الاحتلال وتتبنئ تقرير مصير الشعوب. فما يباعد اليوم بين اليهود وبين المسلمين ليس هو الدين بل هو احتلال فلسطين وتسليط القمع غير المسبوق علئ شعبها الصامد وممارسة الأبارتايد بحقه.

هناك توجه واضح في الأعوام الأخيرة من الروائيين العرب نحو إثارة موضوع العلاقة التاريخية أو القائمة اليوم بين اليهود وبين غيرهم في البلدان العربية وفي فلسطين المحتلة. وهي علاقة تكذب وتفند الأطروحات الصهيونية حول استحالة التعايش بين اليهود وبين العرب مسلمين ومسيحيين وغيرهما في البلدان العربية نفسها، وما يجري اليوم بشئان فلسطين ليس صراعا دينيا، حتى ولو كان الإسرائيلي يتأسسس على أيديولوجية دينية وحتى لو كانت بعض المنظمات الفلسطينية تتأسس هي أيضا على أساس ديني، بل هو صراع تحرري وسياسي حول الأرض تندمج فيه من الجانب الفلسطيني كل الأطياف العلمانية منها وغيرها.



وإعلاميين وكنت من الكتّاب الذين فككوا هذه

الأحداث العنيفة التراجيدية خاصة في روايتك

"كولونيل الزبربر".. نحن الآن على مسلفة من

تلك الحقبة الأليمة.. كيف تراها الآن من موقعك

كروائك تناولها ومنحها عددا من الأعمال.

وشخّصتها ووضعتها في مكانها التاريخي؟

كيف تقرأ ما كتب عنها هل أحاطت بها

■ الحبيب السائح: في رواية "كولونيل

الزبربر" كما من قبلها في رواية

ينير المسلك وبين أن تكتفى باليقينيات المعلقة على بابها. هذا يكون الفرق بين كاتب و آخر . كاتب مكتف يتلك البقينيات واصف، وكاتب مسكون بالقلق مُسائل.

متون الرواية

• الجديد: كيف تجد متون النص الروائي الراهن في الجزائر خاصة وفي العالم العربي عامة؟ ما هي علامات التقارب بينهما .. لماذا لا يحضر النص الروائي الجزائري إلا في ما ندر؟

الحبيب السائح

حكاتب جزائري من مواليد منطقة سيدي عيسى ولاية معسكر. نشا في مدينة سعيدة، تخرّج من جامعة وهران (ليسانس آداب ودراسات ما بعد التخرّج). اشتغل بالتّدريس وساهم في الصّحافة الجِزائرية والعربية. غادر الجزائر سنة 1994 متّجها نحو تونس حيث أقام بها نصف سنة قبل أن بشدّ الرّحال نحو المغرب الأقصييٰ ثم عاد بعد ذلك إلى الجزائر ليتفرّغ منذ سنوات للإبداع الأدبي قصة ورواية. من أعماله القصصية: القرار/ الصعود نحو الأسفل / البهية تتزيّن لجلادها / الموت بالتّقسيط. وفي

الروايــة له: زمن النمرود / ذاك الحنسّ / تماسـخت / تلك المحبّــة / الحنين / الموت في وهـران / كولونيل الزبربر / أنا وحاييم. وترجمت له إلىٰ الفرنسية: ذاك الحنين وتماسخت.

■ الحبيب السائح: تلك المتون، بحسب

ما أطالعه، نابعة من كثير من الأسئلة التاريخية المعلقة ومن الهموم الوجودية ذات الصلة بالتحولات الجارية في الجزائر، منها على الخصوص ما خلفته المحنة الوطنية من رضوض نفسية في الأجساد والروح والذاكرة. وهي متونّ توسع، كل يـوم، مـن انتشـارها أفقيا. واستطاعت أن تحتل لها مساحة مهمة في خاطرة السرد العربي المعاصر. وذلك بالنظر إلى تقهقر الرقابة الرسمية، بحيث أصبحت في الجزائر، رقابة بعدية، وإلىٰ خرق الإنترنت جدار حدود البريد التقليدي، الذي غالبا ما شكل حاجزا رقابيا على النصوص الجزائرية المرسلة إلى الخارج للنشر (خاصة لبنان). إني أتحدث هنا عن تجربة شـخصية عشتهاً. أما عن التقارب فإنه، برغم الخصوصيات التاريخية والثقافية والاجتماعية لكل بلد عربي، يبدو اليـوم واضحا جدا؛ ذلك لما جرى ويجري في العالم العربي من تحولات سياسية عميقة منذ عشرين سنة، فإنه يكفي أن تطلع، مثلا على عينة من الروايات الصادرة، في الأعوام الأخيرة خاصـة، لتتبين الاهتمام المشـترك، غالبا، بالتاريـخ وبالعلاقة مع الآخر وبالحريات

🖜 ينشر كاملا على الموقع بالاتفاق مع «الجديد» الثقافية الشهرية اللندنية

"تماسخت" ورواية "مذنبون لون دمهم في كفِّي"، عملت، بعد أخذ مسافة، حتى لا أقع في الاستعجالية، على أن أنظر إلى تلك الوقائع بعين الشساهد الذي يتذكر ما حدث؛ لأنى كنت أعيش، كباقى الجزائريين، في خضمَّها؛ وعلىٰ أن أنقل مَّا ترتب عليها من آلام عميقة وخسائر فادحــة، من غير أن أدين. فقد سـجلت شـهادات، فحسـب، ضمنتها أسئلة طرحتها على الضمير الإنساني تتعلق باغتصاب حق الإنسان في الحياة وانتهاك كرامته وتدنيس حرمته. وأنا اليوم أشـعر بنوع من التحرر من مســؤوليتي ككاتب شاهد على ما وقع، لأنى هزمت ترددي وكنست كل حساباتي عماً يعتبره بعض الكتاب "خسارة وربحا" في التقدير حين يتعلق الأمر بموقف سياسي أو إنساني أو أخلاقي. فإني كنت أمام ضُميري عارياً. ولأنى أعرّف أن تاريخ الشبعوب الحالى تكتبه الروايـة. غير أنه لم يكن من السهل مقاربتها روائيا؛ نظرا إلىٰ طابعها المركب والمعقد وسيرورتها الدَّموية باهظـة الثمن. ومن ثم، وفي ندرة الكتابات السوسيولوجية وقلة التحقيقات الصحافية وغياب الدراسات الجامعية التي أنجزت عنها وكذا سرية أرشيفاتها، لا يتسع المجال بدرجة الزاوية التى تستطيع الرواية الجزائرية من خلالها أن تنظر إلى

• الجديد: العديد من الكتاب في الجزائر مازالوا ينهلون من الثورة وتوابعها، لم يخرجوا بعد من عباءتها حتى أن هناك من يقول إنها استنزفت الخيال ورمت به في الملل والتكرار. هل تعتقد أن تيمـة الثورة مازالت منبعـا لا ينضب مع كل ما حدث في واقع الجزائر من تحولات وانقلابات

ما حدث بشكل حيادي وأن تتناول آثاره

النفسية خاصة على جيل بأكمله.

■ الحبيب السائح: بصدق، لا أعتقد ذلك. فحرب التحرير فعل ملحمي عظيم راسـخ في الوجدان ومعتمل فـى الذاكرة الجماعيــة. وهــو أحــد روابــط الضمير الجمعي. لــذا فهي، فعلا، منبع اســتَمدّت منه أعمال أدبية وقنية (سينما، تلفزيون، مسرح وتشكيل). وهذا غيض من فيض، كما يقال. لأن الكتابة، روائيا، الآن عن حرب التحرير تقتضى كثيرا من المعرفة والبحث ومن الشجاعة خاصة لتناول المسكوت عنه والمحظور وما لم يقله المؤرخ وما رسّخه السياسي خدمة له ولنظامه. الكتابة عن ثـورة حرب التحرير فعل

يضعك في مواجهة مباشسرة مسع العتمة . التاريخيــَّة. وحينها أنت ســتكون مخيرا بين أن تذهب في عمقها تحمل في يدك ما